قوة الكلمات

الياس خوري

— ١ —

يرسم غسان كنفاني في روايته الاولى « رجال في الشمس » الرمز الاساسي الذي تعيد التجربة الادبية صياغته باصرار . فالرواية كعمل فني ، تبدو مقررة سلفا ، اذ يتدخل الكاتب بشكل قسري ليقود ابطاله الثلاثة الى الخـزان . ثم ينسحب تـاركا لمصيرهم المجاني صدى مرارات الذروة المجهضة . ويجلس على حـافة الصحراء ويجعلها تردد : « لماذا لم يدقوا جدار الخزان » .

بين الوصول الى الموت المجاني وصرخة التساؤل، تقع مسافة الكتابة التي تستعجل النهايات ، وصولا الى بداية مفترضة . لكن البداية لا تأتي من داخل السياق ، فالكاتب يفترض عبر وعيه الايديولوجي الحاد ان مجرد طرح التساؤل ، يبرر ضخامة الرمـز أمام ضمور التفاصيل التي تعجز عن تعبئة مسامه ، فيبقى كتلـة صماء ، ذريعـة للكتابة . ويموت الثلاثة دون ان نعرف ماذا جرى داخل الخزان لحظة الموت . يموتون موتا مجردا موتا رمزيا ، لان علاقتهم (كنص) تعجز عن اضاءة لحظة التساؤل .

يتدرج كنفاني في تعامله مع رمز « الخزان » في جميع رواياته . فهو مغلق او محطم، لكنه يقف عائقا عن ايصال العلاقات الى لحظة انفجارها الداخلي . فحين تأتي أم سعد لتفجر خزان المخيم ، بهذا الاصرار العجيب على الفرح الثوري ، يتناثر الخزان شظايا فجرتها القنبلة الثورية ، ويرتفع الايقاع الشعبي الى ذروة الالتحام البسيط بالممارسة. ثم يخفت الايقاع ونعود الى الخزان مرة اخرى ، خزان الحواس . فيقدم لنا كنفانـي عبر الحوار بين الاعمى والاطرش . اكثر نصوصه عمقا عن الشرط الفلسطيني ، الذي يتماوج كفعل تحده الاف السدود الذي يقيمها جسده المزق . **الخزان** ، مستوى اخر من العلاقة — فداخل كل رمز شبكة علاقات تصنع ايقاعه ودلالته . اي ان الرمز الكبير الذي تدور حوله رواية « رجال في الشمس » ، ثم يبقى ماثلا في بقية الروايات ، هو تلخيص مكثف لعلاقات اجتماعية ، سياسية ، ولدت وتشابكت وشكل هو امكانية نقطة تقاطعها . من هنا اهمية اكتشاف دلالته وعلاقاته .

الدلالة الاولى : هي دلالة الزمن . فالخزان هو الزمـن الفلسطيني « العربي » . زمن جامد يتحرك من خارجه . من خارج ارادات الذين يفترض فيهم صناعته . الزمن هنا هو لحظات ، ست دقائق ، يقول ابو الخيزران . لكن الدقائق مائعة ، سريعـة وملتهبة . قرارها خارج الرجال الذي ارتضوا الخزان هربا من خزان المخيم . فكمـا يتحكم البوليس بأطراف المخيم ، يتحكم البوليس بأطراف الخزان ، وكما يصنع البوليس زمن المخيم يصنع رجال الحدود زمن موت الرجال الثلاثة في خزان الماء .

الدلالة الثانية : هي دلالة الفعل . المكوث في الداخل ، ارتضاء للعجز . والعجـز